

الأدب العربي الحديث بين الأزمّة والتقدم

بقلم رينيه جينون

سياسية واقتصادية محضة ، اي اسباب يمكن ان نسميها اثانية . نعم ان هذه الاسباب موجودة بلا شك ، ولكن علينا ان نبين فيها ايضاً ، كما يفعل الطبيب النفساني ، شعوراً بالنقص والبحث عن التعاون . وقد توتر الكبرياء اعتمق الدوافع التي تسيرنا ، الا انه يتضح بكل جلاء لمن ينعم النظر في اعمال مفكري الغرب منذ بضع سنوات ان هناك وسط التيارات الاقتصادية والسياسية سعيًا حديثاً لفهم الرجل الشرقي والقيم الشرقية ، وللغاذ الى اسرار عالم روحي وعقلي شرقي . وان تبلغ في السذاجة بالطبع الى القول ان الغرب يريد ان يصبح شرقياً ، اذ في هذا كل الخطر له ولنا في نفس الحين . ولكن الذي اعنيه انه يبحث عندنا ، وقد يكون ذلك عن غير قصد ، يبحث عن القيم التي يحتاج اليها لانتم اتزانه وليهرب من هاوية الفردية التي ينزلق اليها ، انزلاقاً سريعاً ، عالمه القائم على الآلة .

تأملوا نجاح الفلسفة الهندية والبحوث في أعمال آباء الكنيسة الشرقيين والدراسات الاسلامية الحديثة والمحاولات المختلفة لفهم الحياة الدينية والتصوف في الشرق ، وذلك لا اعتماداً على مقاييس غربية ولكن في البيئة الثقافية والتاريخية الشرقية نفسها .

وان اقتصرنا هنا على ذكر اسم رينيه جينون « René Guénon » فانما ذلك لكثرة من يجدر ذكرهم في هذا المقام . تأملوا كل هذا شعروا بالحاجة الماسة الى موافاة الغرب برسالتنا . فاتزان العالم يتطلب ان نضيف ثقل الشرق الى الميزان العالمي .

وانتم لتدركون منذ الان الاتجاه الرئيسي لحاضرنا : انه موقف ترحيب وافتتاح للغير بغية انهاء طابعنا الذاتي بتقديم اشده ما في تراثنا اصالة ، وباستقبال كل مساهمة خارجية تنمي شخصيتنا . ويمكنني ان اقول ان هذا الموقف موقف لبناني في جوهره ، اذا لاحظنا ان لبنان قد اختار لنفسه ان يكون همزة وصل بين الشرق والغرب ، وانه ايضاً موقف مصري اذا تذكرنا انه عندما تحدث في مصر عن دلتا النيل أو بكلام ايسر عن الدلتا ، فاننا نعرف ان النيل منبعه جنوب السودان وان الدلتا التي تشير اليه هي احدى حروف الابجدية اليونانية .

★

قوى الجاذبية الشرقية

وإني فيما يخصني ارى بوضوح ما يكمن في الشرق من اسباب جاذبية تلفت اليه غيره ، واذا تكلمت عنها فليس ذلك تهديّة واسكاتاً لقلقتنا بامتداد كاذب ، ولكن لاجت معكم العوامل التي يقتضي علينا تقويتها في ثقافتنا ، ولأبين كيف تحمل هذه الميزات في طياتها



لقد اخترتم محاضرة اليوم رجلاً مجهولاً في محيط الادب العربي لا يعدو ان يكون واحداً من هؤلاء المشتغلين بالفلسفة ، فاسمحوا لي ان احكم تبعاً اختياركم .

وكم كنت اتميب الكلام في هذا الحفل الذي يشرفني بالاستماع الي ، وما اجدره من حفل يثير الهيبه في اقوى النفوس رباطة جأش واملكتها لموضوعها ؛ وانه لما يطمئنني هذه الحكمة اللاتينية التي تقول ان قدر الكلام بقدر مستعيبه ، واذا كان الامر كذلك فليس لدي شك بان ساعرض عليكم خواطر لها نصيبها العظيم من الاهمية ، ولن يكون مصدر هذه الاهمية الفاظي العاجزة المقصرة ولكن ضوء النجوم التي احتشدت تسطع في الافق المحيط بي .

لقد حدثني منذ بضعة اشهر اكثر من سبب الى حب المفكرين اللبنانيين واحترامهم وتقديرهم ، ولكني اليوم عاجز عن التعبير عن هذه الاسباب ؛ غير ان هناك سبباً واحداً من المفيد ان ايسطه ، اذ لا مناص من ذكر هذه الكلمات ، وهي من اقوى ما سمعت هذا العام جرأة وادراكاً لحقائق الامور ، هذه الكلمات التي قالها صاحب فكرة هذا المؤتمر ومنظمه ، هذا الشاعر اللبناني الذي اجتمعت فيه رقة الشاعرية وعمق التفكير ، والذي القى علينا في اثناء زيارته للقاهرة هذا العام هذه الحكمة الثمينة .

« نعم ان مشاكلنا هي مشاكل الانسانية ومعضلاتها . واذا كنا نشعر في هذا الشرق ان بعض العالم يحاول استعبادنا فلأننا قد عزلنا انفسنا عن العالم وتركناه يحاول وحده حل مشاكله - لتتجرد عن مشاغلنا الخاصة ولتتناس عداواتنا فلا نفرق بيننا وبينه بل لتتبن مشاكله ونشعر بالنتيجة اننا متضامنون معه ومسؤولون عن الانسان غربياً كان ام شرقياً ، مسؤولون رجماً اكثر من غيرنا ، وعندئذ نتحل مشاكلنا الخاصة من تلقاها بما نكون قد فرضنا انفسنا على العالم لا كأعداء لاحد بل كأصدقاء وكرفاقاء مصير كما هي الحقيقة »

وتبدو لي نفاسة هذه الكلمات ، اذ من الصحيح ان اصعب المشاكل تأتي من الانطواء على انفسنا ، وان من وسائل حلها الا نرضى بحس انفسنا في حدودها وان نفلت من هذه الحدود بان نساءل : ما الذي ينتظره غيرنا منا وكيف يمكننا ان نفيد غيرنا وينتفع العالم منا ؟

ونحن نعلم من التاريخ ان الشرق ليس دون الغرب في مسؤوليته عن الانسان ؛ ويجبرنا هذا التاريخ ان الحضارة قد اندفعت اندفاعاً الاول من الشرق حيث تشرق الشمس ، وان هذه الحضارة مهددة بالزوال في الغرب حيث تيب الشمس ، ولكنه يجبرنا ايضاً ان الغرب بعد ان تمحض عن هذا الشيخ المرعب - شيخ عالم الآلة الذي يهدد الانسان بالدمار - هذا الغرب يتحول نحو الشرق ينتظر منه رداً لقلقه القتال .

ولا اعتقد ان الباعث على اهتمام الغرب بالشرق اسباب

الرابطة الجماعية

٢ - اما قوة الجاذبية الثانية فهي الرابطة الجماعية العربية ، هذه الرابطة التي يبدو انها تتغلب على عدد لا بأس به من العوائق السياسية والتي تجعل العربي او الشرقي يحس بالرغم من مشاحنات الحياة ان شرقياً آخر اقرب اليه - حتى ولو كانت عدواً - من غربي اعظم صداقة له . وقد درس اخيراً احد الفلاسفة العوامل الاجتماعية والدينية التي تربط افراد الجماعة الاسلامية والتي نطلق عليها هذه الكلمة الغنية بالمعاني - كلمة الامة - إنها ضرب من الوطن الديني والمشاركة في الاصل سابقة للطبيعة واللغة قد استقرت عميقة في القلب والغريزة ، ولكنها تسبق القلب والغريزة ، وتنسجى باخوة ميتافيزيقية (فوق طبيعية) تمتد الى الحياة الاخرة .

اي ان الشرق شرقنا ، حيال الغرب المنقسم على نفسه بسبب تفوقه في عالم الآلة ومنافساته السياسية والاقتصادية ، لا يزال له جبهة على حظ وافر من الاتحاد يتمتع بتكاتف لا يعبر عنه بعد الا تعبيراً سبيراً ، الا أننا نشعر بانه ممكن ، وبانه كامن بين طيات القلوب على استعداد ليهب من سباته ، وهذا عنصر ثان للقوة والأمان يقابل بديهاً روح التفرة في الغرب .

الزعة الدينية

٣ - والعنصر الثالث هو الزعة الدينية . يقولون ان الشرق متدين بطبعه ، ولست على يقين انه سيحافظ لوقت طويل على توثبه الديني بصورته الحالية ، بل انني اتساءل فيما يخص بعض الجماعات سؤالاً ابسط ، وهو ان كان هذا التوثب سيقتضى حياً فيها . وعلى كل فمن الحق ، اذا بقينا على الصعيد العام ، ان الاديان في الشرق شبيهة بقوة طبيعية تصل الانسان بالله ، ولا تزال الى اليوم اقرب الى ضرب من الغريزة الاساسية منها الى حركة نحس بها ونخضعها للتفكير العقلي . هنا قوتها وهنا ايضاً موطن ضعفها . وهي حتى الآن لا تزال قوة امام الغرب الذي بلغ به الامر ، حين أعجزه التوفيق الا بصعوبة بين الله والحضارة وبين النظام الزمني للبلاد الدينية والعدالة الاجتماعية ، ان احسّ مع ماركس ونييتشه وفريق من اصحاب التيار الوجودي الحالي بالحاجة الى انكار الله ليحرر ، كما زعم بعضهم ، تقدم الحضارة والعدالة . وهكذا بينما يحس الغربي كأنه يتم من جهة الله ، لا يزال الشرقي متصلاً بالله ، وعلى الاقل يحس بثقة مبعثها الشعور بألّه حارس .

مضاراً قتالة اذا لم نكفري تعزيرها وتوجيهها ، ولا تزال الفرصة تسمح بذلك ، فاما ان يتم هذا اليوم والا لن يتم ابداً .

وتسعي الاشارة الى هذه العوامل التي تكون قوة جاذبيتنا بالاربع المسائل التالية على ان افسرها فيما بعد . وهي جدية بدراسة اعتمد ازمع القيام بها في خلال هذا العام . (١) واولى هذه المسائل هي صلة الانسان بالكون (٢) ثم الحس الجماعي (٣) النزعة الدينية (٤) واخيراً تأتي النقطة الرابعة نتيجة للثلاث السابقة ، وهي مقياس الرجل الشرقي . والعوامل الاربعة هذه قوى قد تنقلب الى ضعف لاسباب لعلمكم فظنتم منذ الان اليها . لنعد اليها الآن واحدة واحدة .

صلة الانسان بالكون

١ - ان ما اعني بصلة الانسان بالكون يمكن فهمه بسهولة اذا فكرنا في اضرار النمو الفاحش للآلية في الغرب ، واقول النمو الفاحش لان الآلية ككل تقدم عقلي خير في ذاتها وانما تبعث الضعف اذا اسيء استعمالها . فعلى حين ان الآلية فرقت بين الرجل الغربي والطبيعة بان اقامت بينهما حاجز الآلة بل وفصلت الانسان بتقسيم العمل بحيث اصبح الرجل الغربي يدور كعجلة مطلقة لا تدري كيف تدور ولم تدور ، فان انعدام الآلية في الشرق قد ابقى الانسان اقرب الى الطبيعة وعلى اتصال بقوى الكون ، اي بالتوازن الطبيعي الذي ينبعث عنها ، وايضاً بالاتزان والشاعرية اللذين يرافقانها . هناك لدى الشرقي شعور بالامان والطمأنينة مبعثه انه لا يزال متحكماً في عمله ، فهذا العمل اضيق تأثيراً ولكنه مبعث أمان اقوى .

نعم لقد شاهد الشرقي بلا شك قوى الطبيعة تتور ، إلا انه يرى ان للكوارث التي تسببها هذه الطبيعة معنى خاصاً وهي توافق غاية عامة لهذه الطبيعة . ولكن الهام في كل ذلك ان الشرقي لم يثر هو بنفسه قوى جنونية يعجز عن مراقبتها والسيطرة عليها ، فهو لم يشعر بقوى تنقلب ضد الانسان تطغى عليه كما يطرح الجواد الاصيل الفارس الذي اقلت زمامه من يده ، وهذا يهب الشرق استقراراً مطمئناً وتفاؤلاً ، فهو ينظر الى المستقبل كأنه طريق مفتوح امامه الى نصر محقق ، وبتعبير آخر ان الشرقي يشق بالكون وبنفسه بينما بلغ الامر بالغربي ان يجتريز من العالم ومن نفسه .

مقياس الانسان

٤ - والعنصر الاخير الذي ينتج عن كل ما سبق هو مقياس ادق للانسان . فهناك عدم ارتياح غربي مصدره عزلة الانسان امام الطبيعة وانقسام الجماعة والتحرر الديني . وعدم الارتياح هذا يسبب وحدة داخلية وانقطاعاً عن المعطيات المكانية والزمنية يجعل الانسان يحس انه غريب عن وسطه في هذا العالم . ومن هنا كان هذا الشعور بالادراكية وعدم التعقل الذي يسيطر على كل الادب الغربي الحالي والذي لا يمكن ان نجد له مقابلاً وبالاحرى مقابلاً مطابقاً لدينا . وتفسيره هذا سهل ، فالشرقي يحس انه على صداقة مع الطبيعة وعلى امان مع الله . ولاجمال كل ما سلف في كلمة قصيرة ، ان الشرقي في موضع انسب من الزمان والمكان ، إنه اكثر اماناً .

فليس ما هو اكثر ادهاشاً للرجل الغربي من ادراكنا للزمن اننا لا نحس بدقة حدوده وبسرعة مروره وبما ينتج عن ذلك من شعور يقرب انتهائه الا في اتصالاتنا بالغرب . فالوقت عندنا اكثر صفاء كأنه جزء من الابدية لا يحده حدود ، وانتم تعلمون اننا اذا تقابلنا لشأن من الشؤون لم نتناول الموضوع الا على عتبة الباب ساعة الوداع ، وانه من الصعب علينا التزام الدقة في المواعيد التي نضربها والآجال التي نحددنا لتنفيذ عمل ، ونؤثر كأهل الريف ان نحدد فترات المقابلات او سواها بجزء كامل من النهار صباحه او مساءه بدلاً من دقيقة معينة ، ونحن بذلك نتحول عن الاصغاء الى دقائق الساعة لنصغي الى دقائق قلبنا . ايها افضل ؟ من الخير الا تتسرعوا وتفضلوا النظرة الغربية ، الا انني في نفس الحين لن اقول ان النظرة الشرقية هي الفضلى . ان الزمن عند الغربيين اكثر ملاءمة للمنطق والحساب ، اما عند الشرقيين فهو اقرب الى الشعور ، ولكن الانسان لم يعرف قط بقلبه فقط او بعقله فقط ، وهو مكون من الاثنين معا . واذن فأن نقطة الضعف في وجهتي النظر هاتين ، انما سببها تفرقة ما كان يجب ان يبقى دائماً مجتمعاً .

وهل من حاجة الى الاضافة انه ينتج عن هذين الادراكين للزمن صورتان مختلفتان لفهم التاريخ ؟ وقد لاحظ منذ وقت قصير احد المؤرخين السوريين ، وهو وكييل عميد احدى الجامعات ، نقض فهم التاريخ في الشرق في حين اننا نرى على عكس ذلك مؤرخاً غربياً يتكلم عن « تعجل » للتاريخ ، وهذا الشعور الزائد بالزمن في الغرب مثل الشعور الناقص به في

الشرق كلاهما ينتجان عن تفاعل ينقصه الاتزان .

ومها يكن من امر ، فقد رأينا العوامل الاربعة التي تجعل للشرق جاذبيته . ان الشرقي يحس بالكون وطناً له ، الا عندما يصطدم بما تقيمه السياسة الخارجية في طريقه من عوائق ، في حين ان الغربي يحس بنفسه غربياً حتى وسط سياسته هو ، بل هو لا يحس بنفسه في وطنه حتى في صميم نفسه . انه لشعور مؤلم بالغربة عبرت عنه وجودية سارتر عندما قال : « يلد الانسان دون سبب ويعيش دون هدف ، ويموت صدفة » .

الساعة الخامسة والعشرون

أكان الكاتب الروائي فرجيل جورجيو Virgil Georgiu . مؤلف « الساعة الخامسة والعشرون » الذي نقل اخيراً الى العربية بسوريا ، يفكر في ذلك عندما تنبأ بان الضوء سيأتي من الشرق ؟ وقد تركت روايته هذه التي ألفها بعد الحرب اثرأ عميقاً في الضائفة الاوروبية . وقد اعتبر فيها ان الساعة بلغت الخامسة والعشرين لانها الساعة التي تلي آخر النهار والتي انعدم الامل فيها ولم يعد ينتظر منها شيء . وقد قت بتحليل القصة في كتاب نشر في العام الماضي عنوانه « اميكتنا ان نسير التاريخ » وقد بدا لي ان كتاب جورجيو يستحق دراسة بسبب المسألتين الرئيسيتين اللتين ذكرتهما .

ان اول ما ينبغي به جورجيو في كتابه هو موت الغرب بسبب نمو الالية الفاحش فيه ، وما يسوده من عقلية ادارية يبقى فيها المسؤولون مجهولين ؛ وعندما يظن القارئ ان الساعة الخامسة والعشرين ، اي ساعة اليأس ، قد دقت نحس فجأة ببريق خاطف يلح امام اعيننا اذ ينبئنا الكاتب بان الضوء قد يأتي من الشرق .

صدر حديثاً :

الجزء العاشر من سلسلة

كنوز القصص الانساني العالمي

طريق التبغ

للكاتب الاميركي الشهير آرسكين كالدويل

قصة انسانية خالدة تصور حياة المعذبين في الارض في ولاية جورجيا الاميركية . وقد بلغ ما بيع من نسخها نحواً من خمسة وعشرين مليون نسخة ، وأخرجت على الشاشة السينمائية ، ومثلت على مسارح نيويورك وباريس ولندن ، فاستمر عرضها عدة سنوات متواصلة من غير انقطاع ، كما ترجمت الى معظم لغات العالم الحية .

نقلها الى العربية الاستاذ

منير البعلبكي

دار العلم للملايين

المن ليرتات

من هو الشرقي الذي لا تهزم نشوة عندما يقرأ هذه الكلمات ، ؟ فإخبرنا
اولاء ، بعد ان زعمنا انفسنا الجزء الغافل في هذا العالم ، نجد الغير وكأنه
ينتظر منا البعث . الا ان فرحتنا سرعان ما يتبها شك . فكيف يمكننا ان
نمنع الغرب ، وما هي القيم التي يمكننا ان نمدد بها ، وهل نحن وهذا
الغرب على نفس المستوى من الثقافة يمكننا ان نبادله ثروتنا ؟ وهكذا
تظهر لنا نشوتنا مع قلعنا في نفس الحين ، وامكانياتنا الواسعة مع مواطن
عجزنا الخيفة . ولكن أتكون رسالة الابداء غير التنبيه الى هذه المشاكل
بحيث يفتحون امامنا منافذ جديدة للفكر وللحياة ؟

*

وإذا اردنا ان ندرك كيف تفتت مواطن العجز فينا من روح
مستحيلاتنا ذاتها . بافسادها من الداخل وتحويل كل من القوى التي كنا نتكلم
عنها منذ لحظة الى ضعف ، كفي ان نسير عمق الثقافة ، واليك ما نحسه
من مشاكلنا الاساسية . ان هذا التحليل سيطلعنا على عناصر تعرفونها دون
شك ، وارجو المذرة اذا كررتها هنا .

تحليل الثقافة ودرجاتها

ان كل ثقافة نتيجة لتعاون درجات المعرفة الاربع التجريبية والعلمية والفلسفية
واللاهوتية . ولا تتقدم الثقافة تقدماً متوازناً الا عندما تسير هذه الدرجات
الاربع في جبهة واحدة ، ولكنها تفقد توازنها عندما تنمو احدى هذه
الدرجات على حساب الأخرى ، اذ ينجم عن ذلك نمو جزئي فاحش في
احدى الدوائر مع تأخر في النمو العام .

وقد حدث عندنا منذ بضعة قرون ، اي منذ القرن السادس للهجرة تقريباً
المقابل للقرن الثالث عشر الميلادي ، ان المعارف التجريبية والدينية سبقت
المعارف العلمية والفلسفية ، وكان من اثر هذا الاندماج في التوازن ان
اضطرت جميع دوائر الثقافة والاداب والفنون ، فسببت هذا التأخر الذي
نرجو ان يكون مؤقتاً والذي اخذنا نخرج منه . وسببه الاساسية هي أنه
جعل ثرواتنا تبطيء من سيرنا كأنها كثر قد يشغل علينا حملها .

ما الذي اعنيه بهذا النمو الفاحش وبهذا التوقف ؟ اذا كان لزاماً
علي ان انجذب البت في المسائل بلا تفسير ، فاسمحوا لي ان احلل درجات
المعرفة الاربع لندرك النقطة التي زلنا فيها ، وارجو الا تلوموني اذا بدا
مني قصر الاسلوب اختصاراً للوقت . واليك النقط الاساسية .

المعرفة الخبرية

ان المعرفة في اولى درجاتها خبرية ، وهي حيثئذ في مرحلة بدائية تتجه
فيها جميع ملكات الانسان نحو مشاكل العيش اذ ما يعنيه الانسان في هذه
الفترة هو التغلب على مصاعب البيئة ، واضعاف المداوة التي يواجهها بها
الكون ، والخروج من حياة اجتماعية مضطربة تسودها الفوضى .
والانسانية في اولى خطواتها امام امرين كالطفل الذي خرج الى عالم
النور : اما ان توفق وتعرف كيف تتنفس ، واما ان يدرك الموت .
ولهذا السبب كانت الخبرية متجهة الى النجاح ، فاهملت الحقائق العقلية وخالطت
بين الحقيقة والنجاح لسيطرة غريزة البقاء عليها ، وهي لشدة اهتمامها قبل
كل شيء في صد القوى التي تقاومها ، لا تتردد في ان تاجأ الى الحرافات
والشعوذة . فكيف مصر القديمة ، وهم اصحاب الاسرار الرياضية والطبية
الاولى ، لا يترددون في استعمال السحر . وشرع حمورابي ببابل على شدة
دقته في بعض النقط كسألة تحديد اتعاب الطبيب يقبل الحكم الاختياري .
فيحكم مثلاً على المذنب بأن يلقي به في النهر ، فان نجح فهو بريء وان

هلك فهو مستحق لما نزل به . وبالاجمال يمكن ان يقال ان البرامة تقدر
بالنسبة الى فن السباحة او بالاحرى بالنسبة الى الحدائق لا بالنسبة الى
الحقيقة الداخلية . وهذا التصرف هو تماماً تصرف الخيرية . وهذه الخبرية
هي خبرية رجل الجبال ورجل السهول على السواء ، وكنا خاضع لها في
بعض شؤون حياتنا ، بل يمكن ان يقال اكثر من ذلك : ان كل
اكتشاف علمي جديد لا بد له ان يجتاز فترة خبرية قبل ان يسيطر على
براهينه الدقيقة ووسائله في التحقيق . والقانون الدولي يكاد يخرج اليوم من
طور الخبرية . وفي هذا ما يكفي دليلاً لنقول ان الخبرية طور لا بد منه
في كل ثقافة يجب الخروج منه الا انه لا يمكن الاستغناء عنه نهائياً .

المعرفة الموحة

اما في الطرف الاخر من الثقافة فاننا نجد المعرفة الموحة وهي درجة
المعرفة الراجعة واتعمد ان اقابل بها الدرجة الاولى ، وستعرفون السبب بعد
قليل . فبينما الخبرية تحت عقلية فاللاهوت الموحي به فوق عقلي . واما
الذين يعتبرون الوحي كسلاً عقلياً ومباة للجهل فما اولاهم بالفهم ، وقد
كنت اسبب في ذلك لو كان علي ان اتكلم عن صلة العقل بالايمان في
الاسلام او النصرانية . ولكن ما يعيننا ان نفهم انه عندما يصل العقل الى
البرهان على وجود الله برهاناً جلياً يتبه ان وثبته الاخيرة قدمت في حين
ان النتيجة لا تزال هزيلة وتعد هذه الوثبة محاولة ضئيلة بالنسبة الى غرضها : الله .
وفي الواقع لا يكفي ان تثبت وجود الله بالعقل وحده ، بل يجب ان
نميش هذا الوجود . فرغبة الانسان ، اذا كان الله موجوداً ، هي ان
يعرف شيئاً من طبيعته ، وان يتفدى به كهدف أعلى المعرفة . ولكن
الله اذا كان موجوداً فهو الذي لا يعرف ولا يسير غوره ، وهو الذي
لا يسمى والقابل لان تطاق عليه جميع الاسماء ، وهو المنعزل الاكبر .
فهو موجود ونحن غير موجودين ، ولا وجود لنا الا بالنسبة لوجوده . هو
موجود وجوداً بسيطاً كاملاً في آن واحد ، هو موجود وكل كلماتنا
تسقط عاجزة كفضور جافة . بل واكثر من ذلك فهو ان كان يمكن ان
يعرف لسقط الى مستوى المخلوق . الا انه يجب ان ندرك ان امتناع فهم
الله هذا ليس مصدره الله نفسه بل نحن ، فان كانت فيه اسرار فانها ليست
منه وهو في طبيعته ايسر وأكثراً بجلاء من ضوء عقلنا نفسه . ومصدر سره
انما يأتي من حدودنا التي تفرض حوله منطقة ظلام . شأنه في ذلك شأن
قصر بلوري شفاف لا يتجلى لنا اذا نظرنا فيه من ثقب مفتاح . ولكن
بمقدار ما يتخلى العقل الانساني عن سننه التي هي حدوده ، بهذا المقدار يسه
ان ينفذ الى السر فيكشف الحجاب بين الله والعقل في ضوء المعرفة الباهر .

ولكن اذا كان الله لا نهائياً والانسان نهائياً فان هناك مثل هوة
تفصل بينهما يميز الانسان عن تخطيها ، وليس له الا وسيلة واحدة للوصول
الى الله وكفه . ولما كان الانسان عاجزاً عن مد جسره بينه وبين الله
فانه يبقى لله ان يمد الجسر بينه وبين الانسان ، وهذا هو ما نعرفه
بالوحي . ان الوحي نجوى من الله الى الانسان لتصبح في نفس هذا
الانسان خيرة فهو

وانه لأهم من ذلك فيما يخصنا ان نفهم ان الوحي لا يقتصر على كشف
الله للانسان ، ولكنه يكشف ايضاً للانسان عن نفسه هو . فكل وحي
حق كشف للانسان عن الانسان . وفي الواقع ، اننا ندرك صحته بما بينه
للانسان من امكانيات كمنة في نفسه وبما يطلعه عليه من جمال جميع قارات
المادة ودوائر الحياة وبما بينه له من متعة في مصاحبة اخيه الانسان ومن
عذوبة يوفرها الانعزال في خلوة قلب آخر . ولا يقوم الوحي بدوره الا

هذا الفكر الذي يصبح ، بعد ان يكون استمد قوته مما هو ادنى منه وارفع منه ، المحرك الحقيقي لتقدم الحضارة .

وقد تسألونني ما هو مجال العلم والفلسفة ؟ وانني مضطر الى الاجابة دون اسباب ، انه وضع الانسان في موضعه من الكون بالنسبة الى الفكر والله ، واظهار المسلك الانساني ازاء كل هذه القيم ، وابرار صلات الانسان بالجماعات ، هذا فيما يختص بالفلسفة . اما العلم فهمته تنظيم قوى الطبيعة والجمتمع في مصلحة الانسان . وقد يوضح ذلك مثل او مثلان .

ان اكتشاف الطاقة الذرية من عمل العالم ولكن على الفلسفة ان تحدد استعمالها وفقاً لمصلحة الانسان . واليك مثلاً آخر . ان من مهمة الفيلسوف ان يؤكد كرامة الانسان والتساوي بين المواطنين ، ولكن تنظيم هذا التساوي في البلاد يقع على عاتق العالم .

هاتان هما اذن درجتا المعرفة المتوسطتان بين التجريبية والوحي ، وهما متوسطتان لان الانسان اذا اقتصر على التجريبية بقي في طور الطفولة بينما يدعو الوحي الالهي إلى تجاوز نفسه ، ولكنه لا يتجاوز نفسه الا اذا تنبه الى نفسه والى الكون والجماعة . انه لا يتجاوز نفسه الا اذا بلغ فكره سن الرشد عن طريق العلم ، وادرك نموه التام عن طريق الفلسفة . ولقلها مرة واحدة دون رجعة ، انه على العقل البشري ان يفتح بقوة طريق الكون والكلية وان يشيد صرح الحضارة . انه واجب يقع على عاتق العقل الانساني لا على عاتق التجريبية أو الوحي .

الثقافة وازمة الآداب العربية

واذا سألني احد مندهشاً : ما الصلة بين تعريف درجات المعرفة وبين حالة الآداب العربية ، اجبته انني لم اكف بصورة غير مباشرة عن التفكير في الآداب العربية . واما مباشرة ، فها هي المسألة التي تواجهنا : اذا كان في الثقافة العربية الحديثة معرفة تجريبية يمثلها الفلاح واهل الجبال والمدن الذين ورثوا بصورة مبهمه تركة اجدادهم البالغة الثراء ، وان كانت الثقافة العربية الحالية ثقافة دينية ، فهل نجد في هذه الحضارة رجال علم وفلسفة ؟ اذا كان الجواب نفياً ، واذا كانت درجات المعرفة الاربع حيوية للحضارة ، فسيولد انعدام الدرجتين المتوسطتين (أي الفلسفة والعلم) ، لاسباب لا ضرورة لذكرها هنا ، تيارات عميقة مضادة في نمونا الثقافي وفي العوامل الاربعة للجاذبية الشرقية التي سبق ان حللتها .

واننا قادمون على ادراك مصدر الداء ، ولكننا في نفس الحين نكاد ندرك منبع الحلول التي يطلبها ، وانني اظن ان على المفكرين والكتاب ان يتلاقوا في هذه الاعماق ليروا الموضوعات التي توحى بتقدم صحيح ، وتزبل في نفس الحين الموضوعات التي تخفي عدم جدواها تحت وهم ضرورة مقتضيات الساعة . ولا شك في ان المجددين من امثال جمال الدين الافغاني والشيخ محمد عبده ومن واصل مجهوده من امثال حسين

عندما يصبح باعثاً على الحضارة والتقدم الديورين . اما اذا حاول ان يكبح الحيوية ويبقي الانسان متأخراً فعلينا ان نقول اما انه باطل واما ان الانسان افسده . ان الوحي ينزل ليزيد نطاق العقل رجاحة لا ليقم له التخوم ، وهو يعني ان يشد عضد الانسان للعمل لا ان يجرد الانسان من الحضارة . هذا فيما يختص بدرجة المعرفة الرابعة .

العلم والفلسفة

وبين هذين الطرفين الاقصى تقع منطقة واسعة مزدوجة هي العلم والفلسفة . ان التجريبية تحت عقلية والوحي فوق عقلي ، في حين ان العلم والفلسفة خاضعان لسلطان العقل - والعقل يضع قوتين موضع الصدارة هما اليقين العقلي فيما يتصل بالمعرفة ، والتقدير السابق للنتائج فيما يخص العمل . ويمكننا ان نلخص كل ذلك بكلمة على نصيب وافر من الروعة ، بالرغم من انها فقدت معناها لدى من لا يمارس مدلولها ، وهي كلمة الخطة او المنهج . والانضواء تحت لواء الخطة هو قبل كل شيء ان نعرف عم تتكلم مع تحديد عناصر المشكلة المعروضة ، وهو ايضاً البحث عن الحقيقة لذاتها دون تقديم الشعور او المصلحة عليها ، وهي اخيراً التعرف على هذه الحقيقة لا عن طريق نجاحها المباشر ولكن عن طريق الطابع الفريد الذي تفرض به نفسها على العقل دون ان تترك مجالاً للشك ابي عن طريق اليقين . ويحس الفكر في لحظة اليقين ان ضوءاً ينيره ويأمره . واذا كان للمتصوفين ساعات وجد وللفنانين ساعات لإلهام فان العلماء والفلاسفة لحظات اليقين . انها لحظات ممتازة يصلون بها الى اقصى امانهم اذ ان الكون يتحد فيها مع العقل في نقطة معينة . وانتم ترون من ذلك ان المنهج طريق صعب الا انه في نفس الحين حي لمن يطلب كشف الحقائق باستعمال قوى الفكر الطبيعية ، هذا الفكر الذي جعلت التجربة لتمده بفنائها والذي يمهده الوحي بزيادة من الجراءة ،

صدر حديثاً

جعفر بن محمد

دراسة شاملة عن الامام الصادق

بقلم

الاستاذ عبد العزيز سيد الأهل

دار الشروق الجديد

توزيع المكتب التجاري - بيروت

هيكل وطه حسين واجهوا معضلاتنا في هذا المستوى من العمق . وينبغي ان اذكر قبل كل شيء ان انعدام العلم والفلسفة ، وهما الدرجتان المتوسطتان ، سيجعل الدرجتين الواقعتين بين طرفي درجات المعرفة ، وجهاً لوجه . ولكن اذا كانت التجريبية تحت عقلية واللاهوت فوق عقلي ، فان معنى ذلك التقاء الغريزة والايمان دون وساطة العقل الناقد . ولكن اذا كانت الغريزة قوة نافعة عندما يسيطر العقل عليها فانها تصبح قوة خبيثة مضرّة اذا اتصلت اتصالاً مباشراً بالايمان ، لانها تتخذ اذ ذلك مظهرًا مقدسًا يكاد يعتبر ازلياً من الصعب قلقته . وان كان الدين ايضاً قوة اذا اعتمد على العقل ، فان ضوءه نجو عندما يستمد حيويته فوق العقلية من جذور مفروسة غرساً مباشراً في الغريزة ، اذ ان الدين يستمد قوته من غير العقل ، فيجمد ويتخذ صورة التعصب او المحافظة التقليدية ، وهي في الواقع رقيق ملازم لتعصب الايمان . وبتعبير آخر ، تتخذ الغريزة علم الايمان شعاراً ويتذرع الدين بمصالح الغريزة فيوقعان معاهدة لقتل نشاط العقل ، إذ يدركه الحمود ، وينقد الفكر الناقد حدته وتكبل القيود الحرية ويدرك حينئذ الرجل المفكر ، الرجل الذي كان عليه ان يتحكم بقوى الغريزة بعدائها ثروته بقوة الايمان (على الا يكون فاته ان ينيّر كلاً من هاتين القوتين بنور عقله) اي الرجل الكامل الذي فرضت عليه انسانيته ان يشيد صرح الحضارة الكاملة ، هذا الرجل يدركه الفناء لان طرفي المعرفة انغلقا عليه ، وخنقاه .

★

سبل التقدم

وانكم تتعرفون بلا شك في هذا العرض التيارات العميقة التي اوقعنا فيها التاريخ منذ بضعة قرون ، والازمة التي تخضت عن ذلك والتي يحاول مفكرو العرب الذين تمثلونهم هنا الخروج منها ، ويجب الا تنهيب وان نطلق على هذه

في أول تشرين الأول

يصدر كتاب

الأيدي النظيفة

بقلم

سعيد حسن الصايغ

الازمة اسمها الحقيقي ، فهي ازمة سياسية وازمة اقتصادية ، ولكنها قبل كل شيء ازمة ثقافية . ولا تبدأ تتجلى لنا وسائل العلاج الناجمة الا عندما يتوفر لنا من الشجاعة ما نواجهها به مواجهة شاملة . واذا كنا فهمنا الان هذا الجو الثقافي فيمكننا ان نتناول التفصيلات .

نمو العلم واستعمال الآلة

لقد تحدثنا عن صلة الانسان بالطبيعة ، الا ان الطبيعة خلقت ليكتشفها الانسان ، فيهدبها لا في مصلحة قارة واحدة او طبقة بعينها . وان كان العلم وتطبيقه الفني ضاعفا من انتاج الطبيعة ، فالسبب في ذلك هو ان الآلة انبعثت من تقابل الانسان والطبيعة . انها همزة الوصل التي اكتشفها الانسان لتجبر الطبيعة على ان تصبح انسانية بمنع الانسان عن ان يصبح مادياً . فحينئذ ينعدم العلم وتطبيقه يبقى الانسان ملتصقاً بالطبيعة الحالية من كل بصيرة ، فينتهي به الامر الى تقليد حركاتها كأنها ساحر يسير ، ولكن الساحر هنا مقدس ، اذ ان اللاهوت والتجريبية تأمرا لاستعباد الانسان .

وان سوء استعمال الآلة وحده هو الذي اضل الغرب . ولكننا في الشرق لا نزال بعيدين كل البعد عن هذا الخطر ، وليس الخطر الذي يهددنا هو في سيادة الآلة ولكن في ان نكتفي بتقليد الآلة الغربية دون ان نقوم بالمجهود المقابل الذي تفترضه .

ولكننا مع الاسف استجبنا لهذا الاغراء في اكثر من حالة . الا انه ليس ما هو اشد تأخيراً لتقدم العقل من الانتفاع بالنتائج التي وصل اليها الغير دون ان نستحقها ، اذ ان الجود الفكري يأتي اذ ذلك فينضم الى الجود الخلقى الناتج عن طمأنينة خداعة .

الا ان التقدم الفني في العلم والصناعة يعلمنا الدقة في الحكم والاتفات الى الواقع واحكام المقاييس والبحث عن اليقين وتقدير الجهود حسب الانتاج لا حسب الوهم ، اي كل هذه الصفات التي تكون ما يسمى الحطة او المنهج كما سبق ان قلنا ، والتي تعتبر عقلية بقدر ما هي خلقية .

ولكن الامر لا يقف عند هذا الحد ، فتطبيق العلم العملي يطلعنا على ثروات جديدة للكون ، فيضاف بذلك الى الثروة الطبيعية التي لا تزال مجهولة ثروة اصطناعية من عمل الانسان

قصة أمي

« الآن يا أماء ، وبعد سنين من المساة أدركت قصتنا »

أأنسى هنالك عبر الحدود ؟
شهاداً يهوم عبر الوجود
جماجم قومي
وجه نبي
وقصة أمي ...
*
التي مزقتها حراب اليهود
وتصمت أمي ... وفي صمتها
على شرفة المنزل الحالم
يضل خيالي الصبي
وفي حقلنا الأخضر
وأسأل نفسي عن عهدها
« لماذا تقول : ستلقى أبي
يهم الضباب الطري
*
وتشرد أمي
وفي نفسها
بقايا غرام قديم
لذاك الذي من عيوني يطل
ويرقص ظل ويشجب ظل »
على وجهها
وتحنو علي
لتروي إلي :
« وعبر الفراغ صدى صوتها
يزيح السائر عن أمها »
وأشعر آني صبي يتيم
ويبدو أبي

وتقتضى سنون
وأبعد وحدي عبر الحدود
وراء « الشريعة » (١) عبر الحدود
وتمكث أمي في أرضنا
لتدفع عنها الغزاة اليهود
*
أأنسى هنالك عبر الحدود ؟
جماجم قومي
وقصة أمي ...
التي مزقتها حراب اليهود

محمد المقداد
(١) نهر الأردن

نفسه ، وهكذا يضاف الى الاشكال التي استئنست منذ عهد بعيد اشكال اختراعها الانسان اختراعاً . تأملوا هذا الامر وهو ان حضارة اليوم تتطلب من الانسان ان يعيش في عالم يكاد يكون كله من صنعه . وكما ان الانهار ترفعها الامطار الغزيرة ، كذلك ارتقى فيض العقل بالطبيعة الى مستوى اعلى ، فقد جاءت طبقة طبيعية افرزها الرجل فغطت الطبقة القديمة ، كأن تاريخ طبقات الارض وجد له امتداداً في تاريخ الانسان . ويقول ماركس بهذا المعنى « ان الطبيعة بنت التاريخ » .

فهناك مثلاً من يريد تجديد اللغة العربية بوضع كلمات جديدة تطابق الاكتشافات المستجدة . وانهم على حق ، ولكن اللغة لا تتقدم بوضع مصطلحات نفرضها فرضاً ولكن باستعمال الالفاظ ، واستعمال الالفاظ هذا خاضع بدوره لاستعمال مدلولات هذه الالفاظ .

ولم لا نضيف ايضاً الى موضوعات الشعر التي انماها هذه الشاعرية التي توحى بها اعمال الحضارة ، من شاعرية الموانئ تجول خلالها السفن بما تحمله من معاني الشوق الى اراض بعيدة ، والمصانع التي تحف بها اطرافها المعدنية كاجنحة النحل الدائب على العمل حول خلاياه ، والمحطات التي تنطلق منها القطارات فلا تعود ، والمدن التي تسيل عليها الاضواء سيلاً فلا يجد فيها الحزن ملاذاً الا السكررة التي تفيض عنها ، والارياق وقد ايقظها ازيز الطائرات وسط الظلام ، كأنه يدعوها الى حياة اقوى . واخيراً شاعرية النهائي واللا نهائي ، شاعرية العقل والمادة ، وهي لا تعدو ان تكون تحويلاً حديثاً جريئاً للنقوش العربية والفسيفساء .

وانني اعلم ان فريقاً من شباب الشعراء لبنانيين وعراقيين وسورين شرعوا في ذلك فابعدوا استعداداً باهراً له ، واننا ننتظر منهم عالماً شعرياً جديداً يتناسب ورجل اليوم ، ولعله من الخير ان يستمدوا صور شعرهم وقواعده واوزانه من حركة عالمنا الجديد ، بدلاً من ان يستمدوها من القواعد المتوارثة التي تبدو بالية عندما نحاول التعبير بها عن المشاعر التي جدت علينا .

النقد الفلسفي للشخص البشري

وان ما قلناه عن صلة الانسان بالطبيعة يصح ايضاً بالחס الجماعي .

« التتمة على الصفحة ٦٨ »